أبعاد صورة المرأة في الشعر الأندلسي يوسف الثالث أنموذجا

م.م. أسماء محمد صاحب معلة
جامعة المثنى/ كلية التربية للعلوم الإنسانية

أبعاد صورة المرأة في الشعر الأندلسي يوسف الثالث أنموذجا

Dimensions of the women's image in Andalusian poetry, Youssef III, as an example

م.م. أسماء محمد صاحب معلة
Asma'a Muhamad Sahib Mueala
جامعة المثنى/ كلية التربية للعلوم الإنسانية
Asmaa1973@gmail.com

الملخص:

كانت المرأة الأندلسيّة وتدا من أوتاد الشعر الأندلسي في عهد بني الأحمر حيث ارتقت مكانة مرموقة لما لها من عواطف و أحاسيس كامنة في تجربة الشاعر الأندلسي الشعوريّة والشعريّة وذلك لارتباطها الحسّي والعاطفي والفطرّي به، ومن تلك التجربة رصد أهم أبعاد صورتها في شعره الذي ينم عن وعي و نضج عاطفته الإنسانيّة التي استمدها من الحياة الأندلسيّة التي أمدّت المرأة بقدر لا بأس به من الحريّة، ومن منطلق أنّ لكل شاعر خصوصيته وإمكانياته التي تميز لغته الشعريّة عن غيره حتى لو تشابهت المعاني وتقاربت الأفكار قد ارتقت مكانة الشاعر يوسف الثالث الشعريّة حيث جسّد أبعاد صورة المرأة في تلك الفترة.

كلمات مفتاحيّة: أبعاد المرأة، الشعر الأندلسي، الشاعر ملك غرناطة يوسف الثالث.

Abstract

The Andalusian woman was a peg of the Andalusian poetry during the era of Beni Al-Ahmar، As she rose to a prominent position due to its inherent emotions and feelings in the experience of the

emotional and poetic Andalusian poet، because of her sensory، emotional and instinctive connection to it، and from that experience the most important dimensions of her image in his poetry had been monitored، the one who attests to the consciousness and maturity of his human passion، which he drew from Andalusian life، that provided women with a fair amount of freedom، It is based on the premise that each poet has his own characteristics and capabilities that distinguish his poetic language from others، even if the meanings are similar and ideas converge، the poet Joseph (Yousif) III's poetic position has risen to the position where he embodied the dimensions of the image of the woman that period.

البحث:

تنافس الشعراء فيما بينهم على تشكيل أبعاد صورتها جسديّا ووجدانيّا بأرق المعاني وأبلغ الصور معبرين عما يجول في خواطرهم تجاهها من خلال ثنائيّة خاصة فطريّة في مختلف نواحي الحياة، وقد حظيت المرأة بمكانة مميزة عند يوسف الثالث اجتماعيّا واقتصاديّا وأدبيّا وهنا يمكن تقسيم علاقته بها من خلال عدة أبعاد جسدت علاقته بها وهي:

أولاً: بُعد الجسد

قد أثّر البُعد الجسدّي في عهد بني الأحمر على تجربة ملك غرناطة يوسف الثالث الشعريّة حيث وصفها وصفا جسديّا حسيّا مجسدا حاسته البصريّة التي كانت ترى المرأة المترفة والمتحضرة التي تعيش في القصور ومتنزهات الطبيعة الخلابة، وكانت المرأة بالنسبة لشعراء عصره" مصدر إلهامهم في مجالس اللهو ومشارب الخمر ومراقص الأُنس ومحافل الغناء"[1]. وقد استمدَّ الشاعر يوسف الثالث معالم البُعد الجسدّي للمرأة من بيئته الاجتماعيّة الممتزجة بالتراث العربي، فجاءت المرأة الأندلسيّة في نظره تشبه في صفاتها الجسديّة المرأة العربيّة ذات القامة الهيفاء والعين

الحوراء والخد الأسيل والجسم اللّف، وكذلك تحاكي البدر في هلاله والشمس في نورها والورد في حمرته، وقد تجّلى في هذا البُعد معايير الجمال المادي الموروث حيث أسبغ عليه آياتٍ من الحسن والجمال في قصائده.

وفي هذا البُعد يتحدّث الشاعر عن رشاقة المرأة ونضارة وجهها، ولونها الأبيض الصافي الممتزج بالحُمرة حيث هذه الأوصاف تحاكي الأوصاف العربيّة المشرقيّة، كما ترضي أذواق مجايليه حيث امتازت الأبيات بالأسلوب الراقي السهل المحفوفة بألفاظ الطبيعة، وهذا يوافق رأي الدكتور مصطفى الشكعة في أنّ" مزج الطبيعة بالغزل أمرٌ مقبول، بل هو تزواج طريف بين فنّين أليفين رقيقين" [٢] عبر صياغة النص الشعري بصورة فنيّة و أسلوبيّة مميزة ليسهل استكشاف عالمه الأدبي و" تصبح هذه الصياغة جزءا جوهرياً في العملية النقديّة، وبوسع النقد الوصول إلى هذه الكيفيّة بالمعاونات الأسلوبيّة في تفكيك الظاهرة اللغويّة لإعادة تركيبها بعد كشف علاقاتها والنية الجماليّة المبيّتة فيها" [٣].

والبعد الجسدّي قد تجلّى بوفرة في شعره لعل السبب هو الهروب من ضغوطات الحياة والفتن الداخليّة والخارجيّة التي شاعت في ذلك الوقت وهروبه للتغزل في المرأة من باب الهدوء النفسي، وتم تقسيم هذا البُعد عند يوسف الثالث إلى عدة أقسام:

١- الوجه / لون البشرة

يصف يوسف الثالث وجه محبوبته بأنها أبهى وأنضر من إشراقة الشمس في قوله:

فتاة تريك الشمَّس عند طلوعها ولكنّها أبهى جمالاً وأبهر [٤]

الفتاة هي امرأة شابة صغيرة السن عند رؤيتها تشعر كأن الشمس طلعت، وقد زاد في وصفها وجعلها أكثر نضارة من الشمس ذاتها، وهو هنا يعبر عن ذاته المحبة للجمال الطبيعي، وكذلك وصف وجه محبوبته بالبدر في قوله:

سلِ الروضة الغناء من جانب القصر القصر ومنيت خوط البان ذي الورق النضر
بها من ظباء الأنس حوراء طلفة هي البدر أو تزهى جمالا على البدر (٥)

الشاعر هنا يثبت إعجابه بجمال وجه محبوبته من خلال سؤال الطبيعة الجميلة عن جمالها الذي يلف قصره الروضة الغناء، وهو هنا يحاكي العاشق الجاهلي في وصف محبوبته بالظبيّة الناعمة التي يزيد جمالها على جمال القمر، ومن يحب أحدا يدقّق في أصغر تفاصيله مهما كانت تافهة في عيون الآخرين، فالعاشق الشاعر الأندلسي يجسد هذه التفاصيل في أشعاره عن محبوبته، فمثلا يقارن يوسف الثالث حبيبته بضياء الشمس في موضع آخر:

وهل هي إلا الشمس حسنا ومنصبا ولكنها أنأى وأبهى وأبهر
لها البيت مشدودا طناباه بالعلى تظل بمثواه الكواكب تزهر (٦)

يجزم هنا بأنها الشمس في وضوحها ونورها بل تفوقها في البهاء والانبهار، وكذلك لا يكاد يجد لها مثيلا في المقارنة في مفاتنها، وهو يعتبرها مثالية في حسن الوجه ولا شبيه لها مستخدما أسلوب الاستثناء والاستدراك لإثبات هذا الجمال الطبيعي من خلال قوله:

هي الغاية القصوى محاسن لم تجد شبيها لها في الغانيات ولا ندا (٧).

وكذلك يحاول يوسف الثالث الجمع بين معايير الوصف القديم كما كان في الجاهليّة بأنها كالغزالة، والغصن والبدر واللؤلؤة في الوصف الحديث في قوله:

عيني رمى لقلبي بشادن ربيب
قد صاغه قدير من لؤلؤ رطيب
يلوح في الدياجي بدرا على قضيب
والقد إن تثنى غصن على كثيب [٨]

يركز هنا على حاسة البصر من خلال استخدامه كلمة (عيني) مبينا تأثير حاسة البصر على القلب معجبا بحسن خلْقِه (قد صاغه قدير)، واللؤلؤ من الأشياء التي عرفتها الحياة الأندلسية وقد شبهه وجهها باللؤلؤ مستخدما إياه بوصفه ملك غرناطة.

٢- العيون

تعتبر حاسة البصر أهم الحواس في جسد الإنسان بصفة عامة، وفي جسد المرأة بصفة خاصة حيث يعشق المحب رؤية عيون من يحب وهي الوجهة الأولى التي يتمنى رؤيتها دوما، والشعراء الأندلسيين منهم من يحب اللون الأزرق مثل يوسف الثالث في قوله:

وكم قد سباني من سيبها بزرق العيون وزرق الرماح
وكم أوقعت في الهوى فتنة ببيض الثنايا وبيض الصفاح [٩]

يبدأ الشاعر البيت بأداة الاستفهام الدالة على العدد حيث تدل على شدة تأثيرها عليه بسبب لون عيونها الزرقاء الجميلة، و لعل هذا يرجع إلى تأثر يوسف الثالث بالبيئة الاجتماعيّة و اختلاطه بالفرنجة، وهذا اللون يدل على وجود النساء الفرنجيّات صاحبات تلك العيون، و استخدم يوسف الثالث ألفاظ تستخدم في البيئة الحربية تجسّد صورة الغزل و تنطق أن الشاعر العاشق هو محارب و مجاهد من أجل وطنه و كذلك يحارب من أجل الغوص في عينيها مشيدا بالترف و النعيم، و

كذلك نلاحظ في ديوان يوسف الثالث أنّه لم يحدّثنا" زرق العيون إلا مرة واحدة، و يبدو أنّ الأمر كان عارضا لا يعكس ذوقه العام" [١٠].

وقد تغنّى يوسف الثالث بهذا اللون الأزرق على غرار ابن المعتز في العصر العباسي في قوله:

ورنا إلى الفرقدان كما رنت زرقاء تنظر من نقاب أسود [١١]

هنا ابن المعتز يصف عيون محبوبته باللون الأزرق وهي سمة في المرأة الغربيّة، وتنظر بها من نقاب أسود وهي سمة في لباس المرأة العربيّة، وهذا يدل على اكتمال جمال عينيها في نظره.

ويصف الشاعر نظرة محبوبته التي أصابت قلبه بالمرض والوجع والعين الحاسدة قلا رقية شرعيّة ولا حرز تجديه من أعراض نظرتها الجميلة المحببة إلى قلبه حيث يقول ابن حزم في كتابه طوق الحمامة عن أثر النظرة الأولى" وكثيرا ما يكون لصوق الحب بالقلب من نظرة واحدة" [١٢]، ولا يمكن الاستهانة بنظرات وسهام عيون المرأة حيث أنها تعتبر مصدرا لإلهام الشعراء لما ينبثق عنها من روح معنوية ووجدانيّة تعكس جمال ما في القلوب حيث قال عنها يوسف الثالث:

لقد أثبتت في القلب سهم فتورها وما كل سهم مرسل وافق المرمى

٣ – الخد / الثغر

وكنت من الخد الأنيق بجنة تروق بها الأزهار وهي ثغور
مباسم للأرواح فيها ارتياحة تهيج تباريح الأسى وتثير
كذلك كنا حيث شاء بنا الهوى إلى أن غدا صرف الزمان يجور
فها أنا طوع البعد أصبو إلى الصبا إذا كان يوما ما علي خطور [١٤]

يصف الشاعر هنا خد وثغر محبوبته مثل الجنة المليئة بالأزهار الموردة، وثغرها الذي يعكس جمال ابتسامتها كأنها بلسم للروح، ويستكمل

يوسف الثالث وصف محاسنها من حيث لون خدودها الأحمر حيث ينادي محبوبته في إحدى مقدماته الغزلية

إنّ الينور إذا توضح نورها ودّ الضحى منها احمرار خُدود (١٥)

يستخدم الشاعر هنا أسلوب التوكيد (إنّ) واسم محبوبته (الينور) وأعقبها بأسلوب الشرط مؤكدا على خجل الضحى من شدة احمرار خدودها.

أمّا ثغرها وريقها يصفه بالعذب في قوله:

ولو لم يكن ذلك الرضاب بقهوة لما مال عطفاها تمايل ذي سكر (١٦)

يشبه ريقها بالسكر ووجه الشبه هو العذوبة فهي إذا حركت شفتاها سال السكر من ثغرها، وفي موضع آخر وصف جمال أسنانها بأنه عقد من الدرر قائلا:

وهل لحلي ليلى نظير وإن هم يظنون منها الثغر قد أشبه العقدا

أو الغصن المرتاح يحكي انثناءها أو الزهر نثرا في التكلم أو نضدا (١٧).

شبه ريقها بشذى الزهر الجميل طيب الرائحة الذي غزا ثغر محبوبته، فريقها يجمع بين الطعم الجميل والرائحة الجميلة كأنّ شعاعا تسلط على ثغرها، كأنّ كل رموز الحسن والجمال تجمعت في ثغرها حتى أصبحت فتنة للناس.

ويمكن القول أنّ خدود المرأة لا تقل أهمية في عين عاشقها بالنسبة لمعيار جمالها لديه، فحمرة خدودها تزيدها جمالا و" للشاعر أن يكون قديرا في المضي بقصيدته إلى الأمام بواسطة أكثر من مجموعة واحدة من الأزمة الموجهّة في نفس الوقت" (١٨) بمعنى أن يمشي في معايير جمالها تدريجيا فمثلا بعد العيون والنظرات والجفون أتت الخدود، فهو لا يترك تفاصيل وجه محبوبته.

٤- الصوت

حاسة السمع من الحواس الأهم في حياة الإنسان، وصوت المحبوبة له تأثيرا قويا لدى عاشقها، والشعراء قد أبرزوا تلك الحاسة وخصوصا في مجالس الغناء واللهو التي سادت في الأندلس في هذا العصر، فمثلا يوسف الثالث يصف محبوبته في قوله:

فيا لك من سمط بفيها منظم له كلم كالدرّ وهو منثر (١٩)

يمدح الشاعر هنا صوت محبوبته بأنه يشبه إيقاع الموشحات من خلال كلمة سمط، وشبهها بالجواهر المنثورة الخارجة من فيها بأسلوب بلاغي مستخدما التشبيه (كالدرّ) وهو متناثر من حنجرتها.

٥- الخصر و القوام

الخصر والقوام والأرداف لها معاييرها في كل ثقافة، فالشعراء العرب يختلفون مع شعراء الغرب في تجليّات تلك المعايير لدى الذات الشاعرة، ولكن الشاعر الأندلسي أيضا له معاييره الخاصة التي تجلّت في أشعاره، ويوسف الثالث وصفها بأنها:

منعّمة الأطراف، ساقية الحشا مرجرجة الأرداف، مخطفة الخصر (٢٠)

هذه معايير الجمال للمرأة الأندلسيّة حسب وجهة نظره في ذلك العصر فهي مجدولة الجسم تأييدا لقول الجاحظ:" أكثر البصراء بجواهر النساء الذين هم جهابذة النقد، يقوّمون المجدولة، والتي هي بين السمينة والممشوقة، ولابدّ من جودة القدّ وحسن التجريد واعتدال المنكبين واستواء الظهر، ولابدّ من أن تكون كاسية العظام بين الممتلئة والقضيبية، ولذلك قالوا كأنها غصن بانٍ أو قضيب خيرزان وجدل عنان"(٢١).

ويمكن القول أنّ يوسف الثالث شبه وجهها بالمرآة الصافيّة وقوامها الجميل الحسن الذي يخجل البدر من وضاءة وجهها والغصن من لين

قوامها حسب معايير الأعرابي في رسائل الجاحظ،" قيل لأعرابي: أتحسن صفة النساء؟ قال: نعم، إذا عذب ثناياها و سهل خدّاها و نهد ثدياها و فعم ساعداها و التفّ فخذاها و عرض وركاها و جدل ساقاها، فتلك هي النفس و مناها" (٢٢).

ثانيّا: بُعد الحُلّي والزينة

المرأة بصفة عامة منذ الجدّة حواء و هي تهتم بزينتها و جمالها، و كانت الجواهر و الحُلي و الزينة من أولويات المرأة الأندلسيّة لتظهر أمام الرجل في أبهى صورة، فهذا يجعلها تزداد جمالا و على الأخص المرأة المترفة المتحضرة التي كانت تعيش في القصور، و قد ساعدتها البيئة الحضريّة التي عاشتها على تجلّي هذا البعد، فهذه أشياء لا تستطيع المرأة الاستغناء عنها و على الأخص إذا عاشت في بيئة توفر لها هذه الزينة و الحُلي مثل الأندلس والإنسان" منذ خطواته الأولى في الحياة، الإنسان في علاقة دائمة بالأشياء للحد الذي يمكن التعبير عنه بالقول، إن الحياة الإنسانيّة ما هي إلا حركة الإنسان المرتبطة بها، في تعبيره عن حالاته المختلفة، و المغايرة للحظات حياته و في قدرتها على أن تكون عناصر تملأ فراغ يومه و تشكل جغرافية حياته يحملها و تحمله يشكل بها عالميه: الخاص و العام، يتبادلها مع الآخرين فتكون علامة رابطة بينه و بينهم تعبر عن ثقافته و بيئته و بالجملة تبدأ حياته و تنتهي دون أن تنتهي هذه العلاقة فموته ليس معناه موتها، إنه يتركها دليلا على وجوده الذي كان علامة دالة عليه تحمل ذكراه لمن فارقهم" (٢٣).

ويوسف الثالث بوصفه ملكا عاش في قصر الحمراء الحياة المترفة، فهذا ترك أثره في شعره؛ وأثّر على وجهة نظره في جمال المرأة، فهو يرى قمة

الجمال عندما تكون الصورة واضحة هنا يجسد الجمال والحسن بدون زينة وحُلي، فالجميلة حقا هي من لا تتبع أدوات الزينة وتلبسها.

ويمكن القول أنّ المرأة الأندلسيّة تحتفظ في ذاتها بحبها للجمال الصناعي والملبس والتزين بالجواهر، وخصوصا المترفة منها وذلك بسبب البيئة المترفة والحضريّة التي عاشت فيها ووفرت لها الجواهر وغيرها.

وتعتبر الثياب من أهم اهتمامات المرأة الأندلسية وتركيزها على أهم التصاميم والأشكال والألوان، وحيث كانت تلبس أزهى الثياب المزركشة الفاخرة مما تؤثر على نفسية يوسف الثالث، والشاعر يصف لون ثياب محبوبته واللون الأحمر هو اللون الغالب في قوله: **تالله ما أهوى سوى قمر متورد الجلباب والخد** (٢٤)

وكذلك قال في موضع آخر يصف الوشاح الذي ترتديه كي تتزين به:

أمن أجل زورٍ لذات الوشاح غدى القلب مغري بها مستباح (٢٥)

هنا يمكن القول أنّ يوسف الثالث رغم منزلته إلا أنّ علاقته بمحبوبته لم تتأثر بهذا المنصب حيث أشياءها البسيطة وأدق تفاصيلها تلفت انتباهه الذي ينفطر قلبه من أجل رؤيتها.

ثالثا: بُعد العاطفة

الحب هو شعور إنساني تتأثر به الأرواح والنفوس ويزداد وينمو في الطبيعة حيث يتعايش مع الأعراف الاجتماعيّة ويتفاعل مع التراث والتقاليد" وإن المحبة في الإسلام أملٌ دائم وسكينة وسلام"(٢٦)، وقد أضفى الشعراء على مر العصور الجمال الروحي العاطفي بالإضافة للجمال الحسي بوصفها شريكا فطريا مميز المزايا والصفات.

وتعتبر عاطفة الحب التي تجمع الرجل / العاشق بالمرأة / المعشوقة انعكاسا واضحا لاهتمامه الوجداني الخاص بها حيث شغلت حيزا كبيرا من مشاعره عبر تجربته الشعوريّة في أبيات صوّرت مفاتن المعشوقة سواء" حسيّة أو معنويّة – أو هجرها أو طيفها – وما تثيره ذكراها في نفس الشاعر من أحاسيس، أو الحديث عن الحب ذاته وتباريحه" (٢٧).

والذات الشاعرة للشاعر الأندلسي تبرز وجودها من خلال (الحب / الأمل) وذلك لأنّ" النزعة الأصلية للوجود هي الحب إذ فيه تتحقق إمكانيات وإثراء للذات" (٢٨).

ويمثل الغزل العذري بالمحبوبة ميزة تميزت بها أشعارهم حيث صوروا آهات القلوب وأوجاع النفوس وأمراض الحب التي كانت تتعمق في أعماقهم ومنها الفراق والصبر والشوق للمحبوبة والحنين لذكراها حيث كانوا" يفسحون المجال في مقدماتهم الغزلية للحديث عن هيامهم بمحبوباتهم وما يقاسون من الآلام في حبهنّ" (٢٩).

وعند قراءة النصوص الأندلسيّة نلاحظ أنّ الغزل العاطفي شغل حيزا كبيرا فيها معبرين عن عواطفهم تجاه المرأة وفرحهم باللقاء ونشوتهم بالود والوصال، ولم يبتعدوا في شكل القصائد ومضمونها عما جاء به الشعراء المشارقة حيث كان من المتوقع" أن ينفعل الشاعر الأندلسي بمؤثرات الحياة الجديدة من طبيعيّة واجتماعيّة، فيبدل من نظرته إلى المرأة، ومن مفهومه لقيم الجمال فيها، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث، وظل الغزل الأندلسي كأخيه المشرقي" (٣٠).

وكذلك قصائد البُعد العاطفي أبرزت الجذوة المشتعلة في قلب الشاعر العاشق، وجسّدت تمنع وهجر وتدلل المعشوقة عليه، وهنا يعاتب يوسف الثالث محبوبته ويجسد لوعته في الحب قائلا:

حسبتُ مقال القوم صدقا وإنّما أتوك بزور بين وكذاب
صددت وأشمتّ العداة بهجرنا وأنعمت عُذّالي بطول عتاب
وهلا بقدر الذنب كنت جزيتني وكان بغير الهجر منك عقابي
فلا تقبلنْ قول الوشاة فإنّما مراد وشاتي أن تطيل عذابي (٣١)

هنا يوضح يوسف الثالث موقفه ويبين لها أنّ الوشاة يكذبون ولا يريدون إلا تدمير العلاقة بينهما، وكذلك يعاتب محبوبته بسبب هجرها وإنصاتها للوشاة وصدودها، وهنا كأننا أمام قصة درامية تلاحمت أحداثها وبلغت ذروة التعبير والانفجار الشعري في نهاية القصيدة وأكثر ما يلفت انتباهنا من الوجهة العاطفيّة هو" مدى ما يتجسد فيها من تأمل عاطفي يلتحم بجماليّات التعبير ويتجلى عبر تقنيّات تتولى تحويل الخواص الأسلوبيّة للدراما إلى أدوات شعريّة فعالة" (٣٢).

ويبين لنا البُعد العاطفي أنّ" لدى الإنسان صورة مستقرة جميلة للعالم مطبوعة فيه مصادفة أو عنوة عن طريق سلسلة ارتباطات مشروطة ويؤمن الإنسان بأن لوحته المطبوعة هي الواقع الحقيقي" (٣٣) والوشاة في الحب منذ القدم يعتبرهم العاشق هم الخصم الأكبر بينه وبين محبوبته حيث أنّ" الواشي والملذات يشكلان مرحلة الخطر قد جعلهما ابن حزم من آفات الحب" (٣٤).

وهذه صورة فنيّة هي الأساس الثابت في الصورة حيث الهجر والعتاب والفراق والعذاب هو الشوق والحنين لدى العشاق، ومن هنا" فالعمل الفني قد اعتبر إذا نظاما كليا من الإشارات أو بنية من الإشارات تخدم غرضا جمالا نوعيا" (٣٥)، والشاعر العاشق يستعذب الغرام والهوى

رغم عذابه وعلى قلبه مثل لين الغصن رغم كل أوجاعه، فهو يفتخر بهذا الحب لأنه أهل لهذا الوجع والعذاب كما توضح الأبيات.

فالغزل العذري يتعب الروح والنفس، ويرى الدكتور شكري فيصل أن" الغزل العذري تعبير عن وضع طائفة من المسلمين كانت تتحرج وتذهب مذهب التقى وتؤثر السلامة والعافية على المغامرة والمخاطرة وترى أن النفس أمارة بالسوء" (٣٦)، فالنفس تهوى كل ما يتعلق بالمحبوب حتى عذابه، وقد تناثر البُعد العاطفي في قصائد شعراء بني الأحمر، ومنهم يوسف الثالث في قوله:

لقد بخلت حتى بطيف خيالها فلا وصل لي إلا التوهم والفكر (٣٧)

الشاعر هنا يشكو من بخلها حتى بالخيال، والوجع والفكر هو سيد الموقف وهذا دلالة على تأجج نار الحنين في داخله.

ولاشكّ أنّ هذا المقطع الشعري هو تعبيرا غنائيا نابعا من تجربة عاطفيّة ذاتيّة فرديّة خاصة به قد انسابت مع" أحاسيسه وانفعالاته التي انفلت عقالها، فما عاد يسيطر عليها شيء حتى تستوي عملا إبداعيا يصدر عن ذات ليؤثر في أخرى" (٣٨)، وهنا قد برزت شخصية يوسف الثالث في تكوينها التركيبي الذاتي حيث إذا أراد الشاعر أن" يكتب موضوعا وإن كان خارج ذاته سيجد نفسه منساقا لإدخاله في بودقة الذات" (٣٩)

فالحب العذري هو الجاذبيّة الطبيعيّة الوحيدة التي تصنع حالة توازن وتجاذب بين العاشق والمعشوقة على غرار علاقة أعضاء الجسم الإنساني" وهل ذلك إلا قوة عاشقيّة فليعتبر أولو الأبصار" (٤٠).

وهذا يعني أنّ البُعد العاطفي بين العشاق لا يقف أمامه أية حواجز مهما كانت قوتها،

وكذلك نراه في موضع آخر يناجي محبوبته من أجل أن ترضى عنه وتنعم قلبه بوصاله في قوله:

أراك تملّ الوصل من غير علة وتوصل هجري ظالما وتعتبي
وتطلب قتلي بالصدود وبالقلى كأني ذو ذنب ولست بمذنب
فهلا مللتِ الهجر يا منتهى الهوى واصلت وصلي واجتنبت تجنبي [٤١]

لقد كان الشاعر يحب هذه الفتاة النصرانيّة حبا شديدا، و لهذا فإنه يتألم لفراق محبوبته و بعدها عنه، وهذه الأبيات هي تعبيرا متكاملا عن تجربة شعوريّة تقتضي وحدة بين أجزاء القصيدة حتى يمكن في كثير من الأحيان أن نضعها تحت عنوان خاص يلخص طبيعة تجربتها، فالأبيات في قصائد الأندلسيين هي" مجرد خطرات و لفتات شعورية متناثرة يمكن إعادة ترتيبها على أكثر من وجه، و هذه الأمور جعلت الحب لديهم مجرد صور مطلقة لا تتلون بطبيعة اللحظات أو الظروف الخاصة أو الأوضاع المميزة لكل تجربة عند كل شاعر" [٤٢]، وقد دفع صدود المحبوبة إلى عرض حبه باستمرار و التذلل أمامها يستعطفها ألا تصده في قوله:

مددتُ يد المضطر نحوك ذلة فلم تسعفي من جاء بالذلّ مضطرا
وما ضرّ ذلك الحسن لو منّ بالذي يضاعف لي البلوى ويجري لك الأجرا
أردت بطول البخل إشعال لوعتي فيهنيك أن عادت ضلوعي به جمرا [٤٣]

وعلى الرغم أنه ملك غرناطة إلا أنّ محبوبته تبخل عليه في اللقاء والوصال ما جسده في الأبيات التي تبين أن الحب لا يعترف بالمناصب مهما علت في قوله:

بنوا الأملاك ما بلغوا مناطي لهم فخرٌ إذا لثموا بلاطي

فما لك كأس وصلك لا تعاطي كأني لم أكن بالدهر سلط

مهيب الأمر محمود السجيّة (٤٤)

وافتتح يوسف الثالث هذه القصيدة متغزلا بسلمى في أوصاف تحاكي شعراء الجاهليّة معيدا إلى الأذهان تلك الأوصاف فيمن يعشقون في قوله:

أغصن بهبات النسيم يميل أم القد تثنيه صبا وقبول

هي البانة المرتاحة العطف طالما أهاجت غرمي والنسيم بليل

هي الغادة الحسناء أما التماهها فكاف وأما وصلها فكفيل

يقولون أقصر عن هوى من تحبه وشرح حديثي في هواي يطول

أما عرفوا سلمى وأن خيالها حبيب على بعد المزار وصول

أما سلموا في حسن سلمى وإنه إذا حل في قلب فليس يحول (٤٥)

وهنا يمكن القول أن بُعد العاطفة كانت عند يوسف الثالث واضحة و جليّة في أشعاره، و أنّه قد اقتبس أسماء المحبوبات على غرار العصر الجاهلي منها سلمى و ليلى مثلا، فهو أبرز هذا البُعد في أبياته مستخدما الألفاظ الدالة عليه كالفراق و الصدود و الهجر و في نفس الوقت كان يصفها جسديا و هو يذكر صدودها كأنه يدعو نفسه للصبر عليها لأنها تستحق كل ما يعانيه.

رابعا: بُعد الأخلاق

قد أحب الشاعر الأندلسي نسق الأخلاق في المرأة، واعتبر عفتها وخلقها الحسن وخجلها من معايير جمالها حيث قال مفتخرا بأخلاقها:

عقيلة خدرٍ من ذؤابة غالب لها النجم شنف والجبين هو البدر (٤٦)

شخصية الشاعر قد أثرت على فكره، فهو يعي ويقدّر خلُق المرأة وعفتها، وكذلك وصف إخلاصها ووفائها بالعهد له في قوله على لسانها:

لله الله لا تبعد فحبك قاتلي وقلبي من أجل النوى يتفطر
لئن غبت عن عيني ولم يعد اللقا فشخصك في طيّ الفؤاد مصور [٤٧]

هنا يصف حبها له بالقاتل على حد قولها، وكذلك قلبها الذي ينفطر من فراقه وغيابه عنها، وحتى لو غاب عنها فهو مستوطن بين طيّات قلبها

خامسا: بُعد الطبيعة

أغلب الشعراء الأندلسيين استعانوا بالطبيعة في قصائدهم ومنهم يوسف الثالث الذي عاش بين الحدائق الغناء والقصور مما أعانه على الإبداع، فاستمد بعض أوصاف المرأة من جمال الطبيعة، بل أراد أن يرفع قيمة المرأة ويعلي منزلتها فجعلها أروع من الطبيعة حيث لا يضاهيها أحد في جمالها وحسنها ويقول:

هل البانٌ يحي من معاطفك القدا أو الورد في توريده يشبه الخدّا
لقد أخطأ التشبيه من حسب السها يقاوم في آفاقه القمر السعدا
وهل لحلي ليلى نظير وإن هم يظنون منها الثغر قد أشبه العقدا
أو الغصن المرتاح يحكي انثناءها أو الزهر نثرا في التكلم أو نضد
هي الغاية القصوى محاسنُ لم تجد شبيها لها في الغانياتِ ولا ندّا [٤٨]

استعان الشاعر هنا ببعض رموز الطبيعة الغنّاء وملامح المرأة (الورد – القمر – الثغر – الخد)، فالشاعر الأندلسي مثل الشاعر الجاهلي كانت البيئة توحي له بالعبارات والألفاظ في التعبير، وفي قصيدة أخرى يصف جمال محبوبته، عشقه لهذا الجمال فيتحدث عن ملامح جسدها بالتفصيل في صور فنيّة رائعة حيث جعلها تفوق الشمس بهاء وإشراقا كما تحدّث عن سحر كلامها مشبها إياه بالدرر على عادة الشعراء القدامى يقول:

تزَدت رداء الفخر وهو مجبّرَ لها من ظلام الليل فرع ومحجر
فتاة تريك الشمس عند طلوعها ولكنها أبهى جمالا وأبهرُ
فمن قدّها رُمج لقلبي انثناؤه ومن لحظها عضبُ على مشهَّرُ
فالله ذاك القُّد وهو مهفهف ولله ذاك الثغر وهو مؤشرُ
ويا حسنها تُبدي الثنايا كأنما يلوح بمرآها عقيق وجوهرُ
فيالكَ مِن سِمط بفيها منظمَّ له كَلِم كالُّدرر وهو منشَّرُ
عجبتُ لها ملء العيونِ بدائعا لها العطف يزهي والحديقةُ تزهرُ (٤٩)

فالشاعر هنا يستوحي جمال الطبيعة في أوصافه مستخدما (الليل – النهار – الحديقة) دلالة على شدة جمالها، و كذلك يمنح تشبيهاته التأنق و الجمال المستمدة من الحضريّة و الترف إذ يشبّه مثلا أسنان المحبوبة بالعقيق و الجوهر، فهو وإن أتى بتشبيهات قديمة لكن أوصافه لم تخلُ من جديد استمده من واقع بيئته كما اختار لها الألفاظ و العبارات السهلة، و قد كرر الشاعر محاسن المرأة و مفاتنها كثيرا في قصائده الغزليّة، و قد كررها بذات الأصباغ و الألوان و لعل ذلك يعود إلى افتقاره للمعاني و نفاذ حصيلته منها.

وفي الختام :

تعتقد الباحثة أن الطبيعة كانت بالنسبة للشعراء الأندلسيين الحافز الذي يساعدهم على إبراز وصفهم وتجسيده في أحلى صورة حيث يقول المقرّي في نفح الطيب عن الأندلسيين إنهم:" إذا تغزلوا صاغوا من الورد خدودا، ومن النرجس عيونا، ومن السفرجل نهودا، ومن قصب السكر قدودا، ومن قلوب اللوز وثغور الأقاح مباسم و من ابنة العنب رضابا"

[٥٠]، وهم بذلك يمنحون غزلهم لونا بهيجا من الجمال تقدمه الطبيعة الأندلسية الآسرة بما فيها من جنان و ثمار عذبة و أزهار فاتحة.

وكذلك إنّ الواقع الذي عاشه الشاعر الأندلسي يوسف الثالث قد ساعده على إنتاجه الشعرّي خصوصا الترف و الطبيعة ممّا أثّر على تجربته الفنيّة حيث يقول جابر عصفور" بقدر ما يستهدف أن يدفع المتلقي إلى إعادة التأمل في واقعه من خلال رؤية شعرية لا تستمد قيمتها من مجرد الجدة أو الطرافة، وإنما من قدرتها على إثراء الحساسية و تعميق الوعي و من خصائص الخيال الشعري الأصيل أنه يحطم سور مدركاتنا العرفية، و يجعلنا نجفل لائذين بحالة من الوعي بالواقع تجعلنا نشعر كما لو كان كل شيء يبدأ من جديد وكما لو كان كل شيء يكتسب معنى فريدا في جدته و أصالته" [٥١].

والبُعد الجسدي الممثل في جمال الوجه وعناصره وبقية أعضاء الجسم له دلالة فطريّة وسيمولوجيّة عند يوسف الثالث، وكذلك العاطفة لها مساحة كبيرة في علاقته بمن أحب حيث المحب تجذبه تلك العناصر كثيرا حيث يعمل على تجسيدها في أشعاره، هذا بالإضافة إلى افتخاره واعتزازه بأخلاقها وعفتها وتوضيح أنّ هذا الشيء لا يقل أهمية عن أي بُعد لديها، وشعر المرأة لديه قد تجلّى بالتنوع والشمول وتناسب مع مكانته وأفكاره بوصفه ملكا وشاعرا.

الهوامش:

[1]- صورة المرأة في الشعر الأندلسي في ظل بني الأحمر – حمزة ظاهر – رسالة ماجستير – الجامعة الأردنية – إشراف: حمدي منصور – ٢٠٠٢ – ص ٢.

٢- الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه – مصطفى الشكعة – دار العلم للملايين – بيروت – ط٣ - ١٩٧٥ – ص٢٤٢.

٣- البلاغة والأسلوبية – محمد عبد المطلب – مكتبة لبنان ناشرون الشركة العالمية للنشر لونجمان – ١٩٩٤ – ط٢ – ص ٣٥٥.

٤- ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث: ص٤٥.

٥- المصدر نفسه: ص١٦٦، طفلة: ناعمة [5].

٦- المصدر نفسه: ص٦١.

٧- المصدر نفسه: ص٤٥.

٨- المصدر نفسه: ص ٧ .

[9]- المصدر نفسه: ص٢٥.

[10]- صورة المرأة في الشعر الأندلسي في ظل بني الأحمر – حمزة ظاهر – مرجع سابق - ص٢٩.

[11]- ديوان ابن المعتز، أبو العباس عبد الله بن محمد بن العباس (ت ٢٩٦ هـ) – دار صادر – بيروت – ١٩٦١ – ص٢٢٠.

[12]- طوق الحمامة – ابن حزم الأندلسي – تحقيق: نصر فريد – المكتبة التوفيقية القاهرة – د.ت – ص ٨٩.

[13]- ديوان يوسف الثالث: ص ١٠٢.

١٤- المصدر نفسه: ص٦٠.

١٥- المصدر نفسه: ص٣٦.

١٦- المصدر نفسه: ص ١٩٦.

[17]- المصدر نفسه: ص٤٥.

[18]- الصورة و البناء الشعري – محمد حسن عبد الله – دار المعارف – القاهرة – ١٩٨١ – ص ٢٠٢.

[19]- ديوان الملك يوسف الثالث: ص٥٨.

[20]- المصدر نفسه: ص ٢٣٤.

[21]- ينظر: المحاسن والاضداد – تصحيح محمد أمين الخانجي – مطبعة الجميلية القاهرة – ١٩١٢ – ص١٩٢-١٩٣.

[22]- المصدر نفسه: ص ١٩٣.

[23]- الأشياء و تشكلاتها في الرواية العربية – مجلة حوليات الآداب و العلوم الاجتماعية – مصطفى الضبع – مجلة النشر العلمي – الكويت – ٢٠٠٤- الرسالة ٢١٣- الحولية ٢٤- ص٤

[24]- ديوان يوسف الثالث: ص٥٢.

[25]- المصدر نفسه: ص٦٦.

[26]- الحب عند العرب – عادل كامل الألوسي – الدار العربية للموسوعات – بيروت – ط١ – ١٩٩٩ – ص ١٥.

[27]- دراسات في الأدب الجاهلي – عبد العزيز النبوي – الصدر لخدمات الطباعة – القاهرة – ١٩٨٨ – ص ١٣٥.

[28]- الزمان الوجودي - عبد الرحمن بدوي – دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – ط١ – ١٩٧٣ – ص١١٢.

[29]- مقدمة القصيدة العربيّة في الشعر الجاهلي – حسين عطوان – دار المعارف – القاهرة – ١٩٩١ – ص٩٧.

[30]- الأدب العربي في الأندلس - عبد العزيز عتيق – دار النهضة العربية – بيروت – ١٩٧٦ – ص ١٦٩.

[31]- ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث: ص ٧٨.

[32]- أساليب الشعرية المعاصرة – صلاح فضل – دار قباء للطباعة و النشر و التوزيع – القاهرة – ١٩٩٨- ص١٦٥.

[33]- الحب – ليوبوسكاليا - ترجمة: صبري الفضل – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – ١٩٩٦- ص١٥٢.

[٣٤]- طوق الحمامة – ابن حزم الأندلسي – تحقيق: نصر فريد – المكتبة التوفيقية القاهرة – د.ت – ص ١٤٢.

[٣٥]- نظرية الأدب – رينيه ويليك – ترجمة: محيي الدين صبحي – المجلس الأعلى للفنون و الآداب – دمشق – ١٩٧٢- ص ١٨١.

[٣٦]- تطور الغزل بين الجاهلية و الإسلام - شكري فيصل – مطبعة جامعة دمشق – دمشق – ط٢ – ١٩٦٤ - ص٢٣٢.

[٣٧]- ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث: ص ٦٣.

[٣٨]- الأمل و اليأس في الشعر الجاهلي كريم حسن اللامي – دار الشؤون الثقافية العامة – العراق – ٢٠٠٨ – ص٢٣.

[٣٩]- الأمل و اليأس في الشعر الجاهلي – كريم حسن اللامي – مرجع سابق – ص ٢٩.

[٤٠]- تزيين الأسواق في أخبار العشاق – داوود الأنطاكي – المطبعة الأزهرية المصرية – القاهرة – ج١ – ١٣٠٢هـ -ص٣٩٥.

[٤١]- تزيين الأسواق في أخبار العشاق: ص ٦٩ ص ٧٢.

[٤٢]- في الشعر الإسلامي و الأموي – عبد القادر القط – دار المعارف – القاهرة – ١٩٩٥- ص١٦٦.

[٤٣]- ديوان يوسف الثالث: ص٨٩.

[٤٤]- المصدر نفسه: ص ٨٥.

٤٥- المصدر نفسه: ص١٠٥.

[٤٦]- المصدر نفسه: ص ٩٥.

[٤٧]- المصدر نفسه: ص ١٢١.

[٤٨]- المصدر نفسه: ص ٤٥.

[٤٩]- ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث: ص ٥٨، عضب: السيف القاطع (مادة عضب)، المؤشر: من التأشير وهو أن تحدد المرأة أسنانها وترققها (مادة أشر)، المحجر: مشق جفن العين (مادة حجر)، السمط: الخيط ما دام فيه خرز (مادة سمط).

[٥٠]- نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب – أحمد بن محمد المقري – تحقيق: إحسان عباس – دار صادر – بيروت – ج١ – ١٩٨٨ - ص٣٢٣.

[٥١]- الصورة الفنية في التراث النقدي و البلاغي عند العرب- جابر عصفور – المركز الثقافي العربي – بيروت – ١٩٩٢- ط٣- ص١٠.

المصادر والمراجع

١. **الأدب** الأندلسي موضوعاته وفنونه – مصطفى الشكعة – دار العلم للملايين – بيروت – ط٣ – ١٩٧٥.

٢. الأدب العربي في الأندلس – عبد العزيز عتيق – دار النهضة العربية – بيروت – ١٩٧٦.

٣. أساليب الشعرية المعاصرة – صلاح فضل – دار قباء للطباعة و النشر و التوزيع – القاهرة – ١٩٩٨.

٤. الأشياء و تشكلاتها في الرواية العربية – مجلة حوليات الآداب و العلوم الاجتماعية – مصطفى الضبع – مجلة النشر العلمي – الكويت – الرسالة ٢١٣– الحولية ٢٤ – ٢٠٠٤.

٥. الأمل و اليأس في الشعر الجاهلي – كريم حسن اللامي – دار الشؤون الثقافية العامة – العراق – ٢٠٠٨.

٦. البلاغة والأسلوبية – محمد عبد المطلب – مكتبة لبنان ناشرون الشركة العالمية للنشر لونجمان – ط٢ – ١٩٩٤.

٧. تزيين الأسواق في أخبار العشاق – داوود الأنطاكي – المطبعة الأزهرية المصرية – القاهرة – ج١ – ١٣٠٢هـ.

٨. تطور الغزل بين الجاهلية و الإسلام – شكري فيصل – مطبعة جامعة دمشق – دمشق – ط٢ – ١٩٦٤.

٩. الحب – ليوبوسكاليا – ترجمة: صبري الفضل – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – ١٩٩٦.

١٠. الحب عند العرب – عادل كامل الألوسي – الدار العربية للموسوعات – بيروت – ط١ – ١٩٩٩.

١١. دراسات في الأدب الجاهلي – عبد العزيز النبوي – الصدر لخدمات الطباعة – القاهرة – ١٩٨٨.

١٢. ديوان ابن المعتز، أبو العباس عبد الله بن محمد بن العباس (ت ٢٩٦ هـ) – دار صادر – بيروت – ١٩٦١.

١٣. ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث، يوسف بن يوسف بن الغني بالله – تحقيق: عبد الله كنون – مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة – ط٢ – ١٩٦٥.

١٤. الزمان الوجودي – عبد الرحمن بدوي – دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – ط١ – ١٩٧٣.

١٥. الصورة الفنية في التراث النقدي و البلاغي عند العرب- جابر عصفور – المركز الثقافي العربي – بيروت – ط٣ – ١٩٩٢.
١٦. صورة المرأة في الشعر الأندلسي في ظل بني الأحمر – حمزة ظاهر – رسالة ماجستير – الجامعة الأردنية – إشراف: حمدي منصور – ٢٠٠٢.
١٧. الصورة و البناء الشعري – محمد حسن عبد الله – دار المعارف – القاهرة – ١٩٨١.
١٨. طوق الحمامة – ابن حزم الأندلسي – تحقيق: نصر فريد – المكتبة التوفيقية القاهرة – د.ت.
١٩. في الشعر الإسلامي و الأموي – عبد القادر القط – دار المعارف – القاهرة – ١٩٩٥.
٢٠. المحاسن والاضداد – تصحيح محمد أمين الخانجي – مطبعة الجميلية القاهرة – ١٩١٢.
٢١. مقدمة القصيدة العربيّة في الشعر الجاهلي – حسين عطوان – دار المعارف – القاهرة – ١٩٩١.
٢٢. نظرية الأدب – رينيه ويليك – ترجمة: محيي الدين صبحي – المجلس الأعلى للفنون و الآداب – دمشق – ١٩٧٢.
٢٣. نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب – أحمد بن محمد المقري – تحقيق: إحسان عباس – دار صادر – بيروت – ج١ – ١٩٨٨.